الفصل السابع

فى ذكر أوراد النهار (١)

وهى سبعةُ أورادٍ. وهذا هو الورد الأول من النهار. وفى النهار سبعةُ أوراد: أولها: من طلوع الفجر. الثانى: إلى طلوع الشمس، وهو كما ذكرناه من الأذكار، وهو الذى أقسم الله عزّ وجلّ به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨]. فتنفسه من طلوع الفجر [الثانى](٢) إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذى مده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسط الشمس عليه، وأظهره من آياته(٣)، وجعل الشمس كشفًا له ودليلاً عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يعنى: بسطه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعنى: مقيمًا على حاله لا يتحوّل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] يقول: كشفناه بها، ففيه أنّ الدليل هو الذى يكشف المشكل ويرفع المشتبه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] يعنى: أن الظل من تحت الشمس قُبض قبضًا يسيرًا، أى خفيًا لا يُفطَن له ولا يُرى، فاندرج الظلُّ فى الشمس بقدرته اندراجَ الظلمة فى النور، إذ دخل عليها بحكمته، وهو الإصباح والفلَق الذى يُمدح الله عزّ وجلّ بخَلْقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده، والاستعاذة من شرّ ما خلق فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] أى: فسبّحوه

---

(١) كل ما يتصل بالأوراد ضمنه الغزالى إحياءه مع تغيير العبارة أحيانًا والاختصار أحيانًا أخرى، ١/٣٢٩، كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل. وانظر كذلك: الغنية، للجيلانى، فصل أوراد الليل والنهار ٣/ ١٠٧٤، نقله أيضًا عن القوت دون إشارة.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهو الظل الذى أمده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته» وأثبت ما فى (ك).

بالصلاة عندهما، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١ ـ ٢] يعنى: فلق الصبح.

فإذا أمِنَ العبدُ الفتنة والكلامَ فيما لا يعنيه، والاستماع إلى شبهة من القول، وأمِنَ من النظرِ إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر، أو ما يذكّره الدنيا، وأمِنَ من دخول الآفة عليه من التزيّن والتصنّع للناس، ورُزِق الشغلَ بمولاه، والإخلاص له بالإعراض عمّن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر فى مصلاه فى مسجد الجماعة، فهو أفضل؛ فلذلك أمر اللهُ برفع المساجد فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦].

وإن لم يأمن الفتنة، وخشى دخولَ الآفة عليه من لقاء مَن يكره، ومَنْ يُلجئه إلى تُقْية أو مداراةٍ، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يندب إليه، انصرف إذا صلّى الغداة [فى جماعة][1] إلى منزله، أو إلى موضع خلوةٍ، بعد أن يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير» عشر مرات فى مصلاه وهو ثانٍ رجله قبل أن يقوم، ويقرأ بعدها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا قبل أن يتكلم ـ فقد اشتُرط تركُ الكلام فى هذين الحديثين اللذين وردا فيهما ـ ثم أتى ببقية وِرْدِه فى بيته أو فى خلوته، وهو فى ذلك مستقبل القبلة. وهذا حينئذ أفضل له، وأجمعُ لقلبه[2].

ولا يقدّم على التسبيح لله عزّ وجلّ والذكرِ له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين:

معاونة على برٍّ وتقوى فُرض عليه، أو نُدب إليه، مما يختص به لنفسه، أو يعود نفعه على غيره. ويكون ذلك أيضًا ممّا يخاف فوته بفوت وقته.

---

(١) زيادة من نسخة (ك).

(٢) قال صاحب عوارف المعارف (ص٣٩١): «فإن السكوت والذكر فى هذا الوقت له أثر ظاهر يجده أرباب القلوب وأهل المعاملة».

والمعنى الآخر: يكون إلى تعلّم علم أو استماعه مما يقرّبه إلى الله تعالى فى دينه وآخرته، ويزهّده فى الدنيا والهوى، [ولا يسمعْه إلا] من العلماء بالله عزّ وجلّ الموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة، أولو اليقين والهدى، الزاهدون فى فضول الدنيا. ويكون فى طريقه ذاكرًا لله عزّ وجلّ، أو متفكرًا بأفكار[1] العقلاء عن الله عزّ وجلّ.

فإن اتفق له هذان، فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه فى مصلاه، لأنهما ذكرُ الله عزّ وجلّ وعمل له، وطريق إليه [تعالى] على وَصْف مخصوص مندوب إليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال النبى ﷺ: «من غَدا من بيتِه فى طَلَب العِلْم فهو فى سبيلِ اللهِ حتى يَرْجِع»[2].

وقال ابن مسعود: «اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتَهلْك». والغدوّ، والغداة: تكون قبل طلوع الشمس.

وفى الخبر: «مَن خرج من بيته فى طلبِ العلمِ فهو فى سبيل الله عزّ وجلّ حتى يرجع. ومَن خرج من منزله يلتمس علمًا وضعت له الملائكةُ أجنحتها رضًا بما صنع، واستغفرَ له دوابُّ الأرضِ وملائكةُ السماءِ وطيرُ الهواءِ وحيتانُ الماءِ»[3].

وفى حديث أبى ذر الغفارى رحمه الله: «حضورُ مجلسِ علم أفضلُ من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن

(١) فى المطبوعة: «فى أفكار».

(٢) أخرجه الترمذى من حديث أنس فى باب فضل طلب العلم بلفظ: «من خرج فى ...» وقال: حسن غريب. وضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الترمذى، ص٣١٤ رقم ٤٩٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء، باب فضل العلماء والحرص على طلب العلم، باختلاف فى اللفظ، رقم ٢٢٣. وانظر: صحيح ابن ماجه رقم ١٨٢ وفيه: «وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض، حتى الحيتان فى الماء». وأخرجه الترمذى بلفظ قريب من لفظ ابن ماجه، صحيح الترمذى رقم ٢١٥٩. وغيرهما من كتب السنة

قراءة القرآن؟ فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلاّ بعلم»[1].

فإن لم يتفق له أحد هذين المعنيين، فقعُوده فى مصلاه أو فى مسجد جماعته أو فى بيته أو فى خلوته، ذاكراً لله عزّ وجلّ بأنواع الأذكار، أو متفكراً فيما فتح له بمشاهدة هذه الأفكار فى مثل هذه الساعة ـ أفضل له ممّا سواها[2].

روينا عن رسول الله ﷺ: «لأن أقعد فى مسجدٍ أذكرُ اللهَ عزّ وجلّ فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحبُّ إلىَّ من أن أعتقَ أربعَ رقاب»[3].

وروينا أن النبى ﷺ «كان إذا صلَّى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس»، وفى بعضها: «ويصلى ركعتين»[4].

وقد نُدب إلى ذلك فى غير حديث. وجاء فى فضلِ الجلوس بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وفى صلاة ركعتين بعد ذلك ما يجلٌ وصفه، اختصرناه.

روينا عن الحسن أن النبى ﷺ كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: «يا ابن آدم، اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينهما»[5].

---

(١) قال العراقى (٩/١): «ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ولم أجده من طريق أبى ذر». وانظر: كشف الخفا، للعجلونى، ٤٣٣/١.

(٢) فى الإتحاف: «مما سواهما». وقال صاحب العوارف (ص٣٥٣): «فإذا فَرَغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظًا، أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جدًا. فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائمًا، مستقبل القبلة، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة، ويتأخر بالخطوات كذلك، ولا يستدبر القبلة، ففى إدامة استقبال القبلة، وترك الكلام والنوم، ودوام الذكر فى هذا الوقت ـ أثر كبير، وبركة غير قليلة، وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصى به الطالبين. وهذا الوقت أول النهار مطية الأوقات، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبتنى أوقات النهار جميعًا على هذا البناء».

(٣) سنن أبى داود، باب فى القصص، رقم ٣٦٦٧، من حديث أنس بن مالك. وانظر: صحيح أبى داود رقم ٣١١٤، وهو بلفظ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله...». وهو بنحوه فى مسند أحمد ٤٧٤/٣، وسنن البيهقى ٨٩/١٠، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس فى مصلاه، رقم ٢٨٦، ٢٧٠.

(٥) الحلية ٢١٣/٨ من حديث أبى هريرة، وقال عنه: «غريب من حديث الحسن».

فإذا ارتفعت الشمس وابيضّت صلّى الضحى ثمانى ركعات. وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

ثم ينظر، فإن علم مريضًا عاده، وإن حضرت جنازة شيَّعها، وإن كانت معونة على برٍّ وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخٍ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضًا يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاحَ له فضل نُدب إليه انتهزه قبل فوته.

فهذا أفضلُ شىء يعمله بعد الأذكار والأفكار، من بعد طلوع الشمس.

فإذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات أخذ فى الصلاة أو تلاوة القرآن أو صنوف الأذكار ممّا أُمر به، أو نُدب إليه، أو المحاسبة لنفسه فيما سلف، أو المطالبة لها والاستخراج منها فيما يأتنف، أو المراقبة لربه فى كل حال، إلى أن تنبسط الشمس، وتَرْمَض الفِصَال(١)، ويرتفع النهار.

هذا هو الورد الثانى من النهار، وهو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى:١] أى إذا أضْحت الأقدامُ بحرّ الشمس.

وإذا كان العبد على ذلك فقد اتّبع ما أنزل إليه ربُّه عزّ وجلّ، وقد سمع قوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣]، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]. ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩٢]. كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. وصلاة الضحى فى هذا الوقت أفضل، وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها.

قال النبى ﷺ: «صلاةُ الضحى إذا رَمِضَت الفِصالُ»(٢). وخرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام يومًا وهم يصلون عند الإشراق، فنادى بأعلى صوته: «ألاَ إنّ

(١) الرمضاء: شدة الحرارة. والفصيل: ولد الناقة. والمعنى: إذا وجد الفصيل حرَّ الشمس من الرَّمضاء.

(٢) أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم، باب صلاة المسافرين ب ١٩ رقم ١٤٣، ومسند أحمد ٤/ ٣٦٦.

صلاةَ الأوّابين إذا رَمِضَت الفصال». وقوله «الأوّابين»: يعنى التّوابين إلى الله عزّ وجلّ فى كلّ وقت.

ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما نُدِب إليه، وأُبيح له من التصرف فى معاش، إن كان من تجارة بصدقٍ، أو صناعة بنصحٍ، إن أُحوِجَ إلى ذلك، وليكتفِ إن كُفى. وأدنى أحواله: الصمت، والنوم؛ ففيهما سلامة من الآثام، ومخالطة الأنام[١]، فقد جاء فى العلم: «يأتى على النّاس زمانٌ يكون أفضل علمهم [فيه] الصمت، وأفضل أعمالهم النوم»، هذا لدخول المشكلات فى الكلام، ووجودِ الآفاتِ فى الأحوال، وخروجِ الإخلاص من الأعمال.

وكان سفيان الثورى يقول: كان يُعجبهم إذا تفرَّغَوا[٢] أن يناموا، طلبًا للسلامة.

فمن الناس من يكون أحسن أحواله النوم، وليت العبد يكون فى اليقظة كالنوم، إذ فى نومه السلامة، [والسلامة متعذرة فى يقظته]، وأفضل أعماله فى هذا الوقت السلامة. وإنما الفضائل لأهل الإفضال [والفضل] الذين زادوا على السّلامة بالعَمَل والإحسان، والفضل[٣].

فإن نام فى هذا الوقت فهو حينئذ نومُ القائلة، وما تسبب فيه من المعايش يَصنعه فى هذا الوقت من الضحىٰ الأعلى إلى زوال الشمس.

وهذا هو الورد الثالث من النهار.

ثم يتوضّأ للصّلاة قبل دخول وقتها ذلك يستحب، وهو من المحافظة عليها،

(١) فى المخطوط (ك)، والإتحاف ٥/ ١٤٣: «ومخالطة اللئام».

(٢) فى (ك): «إذا يفرغون».

(٣) كان هناك تكرار واضطراب فى أجزاء من هذه الفقرة بالمطبوعة، والتصويب من (ك) والإتحاف ٥/ ١٤٣. وقال الغزالى فى الإحياء (١/ ٣٣٨): «فالنوم أحب له إذا كان نشاطه لا ينبعث إلى الأذكار والوظائف المذكورة». وقال صاحب العوارف (ص ٣٥٧): «فإن سئم من الصلاة تنزّل إلى التّلاوة، ثم منها إلى الذكر، ثم منه إلى الفكر والمراقبة. فإن عجز عن المراقبة، وتملكته الوساوسُ، وتزاحم فى باطنه حديث النفس، فلينم، ففى النوم السّلامة، وإلا فكثرة حديث النفس تقسّى القلب، ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان، فيحترز عن ذلك. قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس. والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فيقيد الباطن بالرعاية والمراقبة، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر».

والإقامة لها.

فإن حصلت كفايته في يومه وقُوته في وقت من النهار، ترك السوقَ ودخل بيته، أو قعد في بيت مولاه تعالى، واشتغل بخدمته مُتَزَوِّدًا لعاقبته. وقد كان الصالحون كذلك يفعلون. كان يقال: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن: مسجدٍ يعمره، أو بيتٍ يستره، أو حاجةٍ لا بدّ له منها.

فإذا زالت الشمس فإنّ أبوابَ السَّماءِ تُفتح للمصلّين والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين.

فهذا هو الوِرْد الرّابع من النّهار. فليصل بعد الزوال أربع ركعات، يقرأ فيهنّ بمقدار سورة البقرة، أو سورتين من المائتين، أو أربع من المثانى، يطيلهنّ ويحسنهن، ولا يفصل بينهنّ بتسليم، هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات، بتسليمة واحدة. وهذا الورد هو الإظهار، الذى ذكر الله عزّ وجلّ الحمد فيه فقال: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فى السَّمَوات وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨].

وليتّق العبدُ الصلاةَ عند استواء الشمس فى كبد السماء، وهو قَبل زوالها عند تقلص الظّل، وقيام ظلّ كلّ شيء تحته، فإذا زال الظّل فقد زالت، وقد يخفى(١) استواؤها فى الشتاء؛ لقصر النهار؛ ولعدول الشمس فى سيرها عن وسط الفلك، فتقطع [سيره] عرضًا، فيكون أقرب لغروبها، فليقدر ذلك تقريبًا، ومقدار استوائها قبل الزوال بنحو أربع ركعات بجزء من القرآن، أو بقدر جزء [يقرأ]، وهو آخر الورد الثالث. وإنّما فيه ورد القراءة والتسبيح والتفكر، وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى ﷺ عن الصلاة فيهن. والأربعةُ الأخر: عند طلوع الشمس حتى ترتفع قِيدَ رُمحين فى عين الناظر. وعند تدلّيها للغروب حتى تحتجب. وبعد صلاة الصبح. وبعد صلاة العصر.

وأُحبّ له إحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع [والسجود]، لأنها ساعة

(١) فى (ط): «خفى» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ١/ ١٤٤.

مستجاب فيها الدعاء، وتُفتح فيها أبواب السماء، وتزكو فيها الأعمال. [وأفضل الأعمال ما كان فى أوقات الصلوات][١]، وأفضلُ أوقاتِ النّهار أوقات الفرائض، فإن لم يقرأ بين الأذانين من درسه فاستُحب له أن يقرأ فى تنفّله الآى التى فيها الدعاء، مثل آخر سورة البقرة، وآخر سورة آل عمران، ومن تضاعيف السور الاثنين والثلاث، مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥]. ومثل قوله: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]. وقوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

وإن قرأ الآى التى فيها التعظيم، والتسبيح، والأسماء الحسنى، فحَسَن؛ مثل أول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ومثل آية الكرسى، وقل هو الله أحد. ليكون بذلك جامعًا بين التلاوة والدّعاء، وبين الصلاة والتعظيم، والمدح بالأسماء. ثم ليصلِّ الظهر فى جماعة، ولا يدع أن يصلّى قبلها أربعًا، وبعدها أربعًا بعد ركعتين.

وهذا آخر الوردِ الرابع من النّهار، وهو أقصر الأوراد وأفضلها. فإن كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد فى هذا الورد، فإنه يُكره له نومتان فى يوم، كما يُكره له نوم النهار من غير سهر بالليل.

وروينا عن بعض العلماء: ثلاثٌ يمقت الله عليها: الضّحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر بالليل[٢].

وإن لم يكن قد رقد، فأحب أن ينام بين الظهر والعصر، ليتقوّى بذلك على قيام الليل، فَلْيَنَمْ، فإن نومَهُ بعد الظهر لِلَّيلة المستقبلة، ونومه قبل الظهرِ لليلة الماضية. فإن دام سهرُه بالليل واتّصلتْ أورادُه بالنّهار حَسُنَ أن ينام قبل الظهر، لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غبَر من الأخرى.

[والحدّ فى النوم: أنّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعة، فالاعتدال فى نومه

(١) زيادة من (ك).

(٢) هذا الأثر ينسب إلى معاذ بن جبل، انظر: الحلية ١/ ٢٣٧.

ثماني ساعات فى الليل والنهار جميعًا، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقدارًا استوفاه بالنهار][1]، إلا أنّه لا يستحب له أن يزيد فى اليوم والليلة أكثر من نوم ثماني ساعات.

ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم والليلة اضطرب بدنه؛ لأن النوم قوتُ الجسم وراحته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩]، أى راحة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١]. إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف، فلا يقاس عليها.

وإحياءُ ما بين الظهر والعصر، وهو صلاة الغفلة، وهو يُشبَّه بقيام الليل. ويُستحب العكوفُ فى المسجد بين الأولى والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، فقد كان ذلك من سنّة السلف. قال: كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويًا كدويّ النحل من التلاوة، إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل.

وكذلك إحياء الورد الثالث؛ الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس، فوق هذا الفضل يُدرك به العبدُ فوتَ قيام الليل؛ لأن الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمةِ الهوى؛ والقلب المتيقظ لربه عزّ وجلّ يَفْرُغ فى هذين الوقتين ويسكن، ويجد العامل للعمل حلاوة، وللإقبال والتفرغ لذةً، ويكون لفراغه من الخلق وشُغله بالخَالق تعالى مزيدٌ وبركةٌ.

وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] أى: جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل، فيخلف أحدهما الآخر. فمن فاته شيء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار. أحدهما: من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى: ما بين الأولى والعصر.

---

(١) هذه الفقرة سقطت من المطبوعة والمخطوطة، وهى فى الإتحاف ٥/١٤٧ نقلاً عن إحدى نسخ القوت التى كانت بين يديه. وأيضًا فى الإحياء ١/٣٢٩.

والوجه الثانى: أن النهار كله خِلْفة من الليل، فمن فاته شىء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاته شىء من أوراد النهار كان الليل خَلَفًا، إذ كل واحد منهما خَلَفٌ من صاحبه، ففيه دَرك ما فات، وخَلَفُ ما سلف من الذكر والشكر.

والذِّكر: اسم جامع لأعمال القلوب كلّها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم من الغيب. والشكر ـ أيضًا ـ يستعمل على جُمل أعمالِ الجوارح من شرائع الإسلام. وهذان جملة عمل العبد، وكُنه خدمته.

وهذان المعنيان هما اللذان ذَكَرَهُما الكليمُ للجليلِ فى قوله تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ [طه:٣٣ ـ ٣٤]، انتظم التسبيح والذكر فى جمل تصرّف الجسم، وتصرّف القلب.

وهذا الورد الخامس الذى هو ما بين العصرين من أطول الأوراد، وأمتعها للعبادة[1]، وهو يضاهى الورد الثالث فى الطول. وهو أصيل النهار، وأحد الآصال التى ذكر الله عزّ وجلّ فيه سجود كل شىء، وقرنه بالغدوّ فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥]. فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات، والمؤمن الحى عن ربّه معرض ذو غفلات!!

ثم ليصلّ قبل صلاة العصر أربعًا، ويغتنم الصلاة بين الأذان والإقامة، كما ذكرنا آنفًا، فإنها ساعة مرجوّة فيها الإجابة.

فإذا دخل وقت العصر دخل العبدُ فى الورد السادس من النهار، وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١]. وهذا أحد المعنيين فى الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت فى الآصال، الذى ذكره الله عزّ وجلّ. وهو العشى الذى ذكر الله عزّ وجلّ التسبيح فيه، والتنزيه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨]. وقال: ﴿بِالْعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. وليس فى هذا

(١) فى الإحياء ١/ ٣٤٠، والإتحاف ٥/ ١٤٨: «وأمتعها للعبّاد».

الورد صلاة، إلا ما كان بين الأذانين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح، فيما فُرض عليه أو نُدب إليه. وأفضل ذلك تلاوةُ القرآنِ بتدبر وترتيل وتفهّم وحسن تأويل.

فإذا اصفرّت الشّمس، ومات حرّها، وارتفعت إلى أطراف الجُدُر ورءوسِ الشجر، فكانت مثلها حين تَطْلُع دخل فى الورد السابع من النهار. فهذا للتسبيحِ والذّكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس. ومن أفضل ما قيل فى هذا الوقت، وفى مثله من أول النهار، أن يقال: أستغفر الله لذنبى، وسبحان الله بحمد ربى، لجمعه بين الاستغفار والتسبيح فى الكلام بلفظ الأمر بهما فى القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وإن قال: أستغفر الله الحىّ القيوم وأسأله التوبة، سبحانَ اللهِ العَظِيمِ وبحَمْدِه، فقد جاء فضل ذلك فى الأثر، والأفضل الاستغفار على الأسماء، كما فى القرآن، مثل أن يقول: أستغفر الله إنّه كان غفّارًا. أستغفر الله إنه كان توابًا. أستغفر الله إنّ الله غفور. أستغفر الله التّوابَ الرّحيم. ربِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وأنْتَ خَيْرُ الرّاحمين، واغْفِرْ لَنا وَارْحَمنْا، وأنْتَ خيرُ الغافرين.

وهذا الورد فى الفضل مثل الورد الأول، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهو المساء الذى ذكر الله تعالى التنزيه فيه، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]، أى سبحوا الله عزّ وجلّ، فأقام الاسم مقام الفعل، وهو الطرف الثانى من النهار، الذى أمر الله عزّ وجلّ فيه بالتسبيح، بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس:١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل:١]، والمعوّذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار؛ فذلك مما أُمر به فى هذا الوقت من الأذكار.

وكما[1] يُستحب من التّسبيح والحمدِ والدّعاء والذّكر فى أوّل النهار قبل طلوع

(١) فى المطبوعة: «كلما» وهو خطأ، وأثبت ما فى (ك).

الشمس، فإنه يُستحب فى هذا الورد قبل غروبِ الشّمس؛ لأن الله تعالى قرنَهُما فى الذكر، فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٣] أى: من شر الليل إذا دخل. فليُعِد العبدُ ما ذكرناه فى الورد الأول من الأدعية والتسبيح، وليقل عند أذان المغرب: اللهم هذا إقبالُ ليلِك وإدبارُ نهارِك وأصواتُ دُعاتك وحُضُور صَلاتك وشُهودُ ملائكتك. صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابْعَثه المقامَ المحمود الذى وعدته. ثم ليقل: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ثلاثًا، ففى هذا أثر وفضل.

وكذلك فليقل مثله إذا سمع أذان الفجر، إلا أنه يقول عنده: اللهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك. والنصّ بهذا فى صلاة المغرب.

وكان الحسن البصرى يقول: كانُوا أشدّ تعظيمًا للعشى منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا، وآخره للآخرة.

فإذا توارت بالحجاب انقضت أورادُ النهارِ السبعة.

فانظر أيّها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا انقضى منك عندها، وماذا قُضى عليك فيها. فقد قطعتَ من عمرك مرحلة ونَقصْتَ من أيامك يومًا. فماذا قطعتَ فى سفرِك بقَطْع مرحلتك؟ وماذا ازددت فى غَدِك بما نَقَصْت من يومك؟

قال النبى ﷺ: «الناس غاديان: فغادٍ لنفسه فمُعتقها، أو راهنٌ نفسه فمُوبقها»(١).

وقد قال الله عز وجلّ فى تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤].

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٩/١٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمى ١٠/٢٣٦: «وإسناده جيد».

وقال فى معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٣٩].

وجاء فى الخبر: «لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيرًا». وجاء فى الأثر: «من استوى يَوْماه فهو مَغْبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم».

ثم دخلت أورادُ الليل الخمس، فتدارك الآن ـ رحمك الله تعالى ـ فيما يستقبل من الليل ما فات فيما مضى من النهار.

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يُبغض كلَّ جَعْظرىٍّ جوّاظ ـ أى: سمين، كثير الأكل ـ سخّاب[1] بالأسواق، جيفةٍ بالليل، حمَّارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[2].

* * *

(١) سَخَّاب: من الصَّخَب، وهو شِدَّةُ الصَّوت.

(٢) سنن البيهقى ١٠/ ١٩٤، والسلسلة الصحيحة، للألبانى، رقم ١٩٥.